قيمة المسؤولية

سيدنا عمر بن عبدالعزيز دخلت عليه زوجته فاطمة وهو يبكي في مصلاه ، **فقالت : أي شيء حدث يا أمير المؤمنين** ، فقال : (إني تقلدت من أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم أسودها وأحمرها ، فتفكرت في الفقير الجائع والمريض الضائع والعاري المجهود والمظلوم المقهور والشيخ الكبير والغريب والأسير وذي العيال الكثير والمال القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، **فعلمت أن ربي سائلي عنهم** يوم القيامة وأن خصمي دونهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشيت أن لا تثبت لي حجة)

لعل الكل أدرك أننا سنتحدث عن قيمة المسؤولية والمساءلة هذه القيمة التي تمثل صمام الأمان لكافة القيم بل لبقاء واستمرار الحضارة المنشودة

عمر بن عبدالعزيز في هذا المشهد يلخص قيمة المسؤولية التي استشعرها ابتداء تجاه نفسه فختلى بربه وصلى النافلة ودمعة عيناه وهو رجل الإسلام الأول وخليفة المسلمين في الأرض ، واستشعر مسؤوليته تجاه شعبه وأمته فبكى خشيت التقصير

الحاكم الذي عُرض المال على الناس في عهده فاعتذروا عن أخذه لوفرته لديهم يخشى التقصير

وقيمة المسؤولية .. هي ثمرة من ثمار دعوة محمد صلى الله عليه وسلم الذي علم كل مسلم أنه مسؤول في الدنيا ومساءل في الأخرة ، لأن الله قال مقسما **(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)**

والمساءلة عن المسؤولية لن يستثنى منها أحد ، حتى الرسل الذين كلفوا بالرسالة من الله **(فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)**

ولذلك النبي لما أرسل الغلام لحاجة له فتأخر غضب منه رسول الله ، وكان يحمل السواك بيده ، فقال له : (**والله لولا أني خشيت القصاص لأوجعتك بهذا السواك**)

أخرج الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله قال : **(كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)** هذه

القاعدة العامة انتقل بعدها إلى التخصيص فقال (والإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته)

فأول ما يتبادر إلى الذهن عند سماع هذا الحديث أن كل انسان مسؤول لأن النبي بدأ بالحاكم وأنتهى بالعامل وتوسطهما بالأسرة

بمعنى أنك ستسأل وإن لم تكن في مقام الملك أو في منصب مرموق بين الناس ، ستسأل بقدر ما وضع الله بين يديك وكلفت برعايته (شعب ، مال ، أبناء ، زوجة ، أملاك الغير)

قيمة المسؤولية حرر بها الإسلام أتباعه من التراكن ورمي المسؤوليات إلى ظهور الأخرين

فالنصارى : يعتبرون المسيح صلب من أجلهم وأنه تحمل كل أخطاءهم وأنهم لن يحاسبوا على معاصيهم

واليهود : يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار وأن هذه المكانة ستنجيهم من الحساب على جرائمهم المقترفة في حق البشرية

والبوذيون : يعتقدون أن الأرواح تتناسخ وتنتقل بالموت من شخص لأخر ، لأن الإنسان يفعل ما تمليه عليه نفس غيره

فجاء رسول الله بقيمة المسؤولية ليلغي هذا التراكن ويعلم البشرية أن كل إنسان مسؤول ومحاسب على كل صغيرة وكبيرة ، فتلى على مسامع البشرية في سورة النجم (**أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى**)

وقوله سبحانه (**مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**)

وقوله تعالى (**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**)

وقوله تعالى (**وَكُلُّهُمْ آَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا**)

وقوله تعالى (**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ**)

هذه المسؤولية الفردية أكدها رسول الله حين

خاطب ابنته وأحب الناس إلى قلبه قائلا لها : (**يا فاطمة إعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئا**)

ولما أدرك زين العابدين على بن الحسين هذا ، قال له الرجل حين رآه يطوف بالكعبة ويبكي : ما الذي يبكيك وجدك رسول الله ، فقال له أما قرأت قول الله (**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ**)

المسؤولية الفردية .. كانت فكرة غير متقبلة في مجتمع يقوم على القبلية والتباهي بالأبناء والأموال فتخبره أنه في النهاية لن ينفعك أبنائك ولن تنفعك أموالك وقبيلتك وسيتخلى عنك كل من عشت الحياة من أجلهم من الأقارب والأباعد ، وستجزى بما قدمته لنفسك في حياتك الدنيا

قيمة المسؤولية في الإسلام لها قاعدتان :

القاعدة الأولى :

أن يجمع المسلم بين المسؤولية الخاصة والعامة

المسؤولية الخاصة : هي تحمّل الفرد مسؤوليّة التّكليف تجاه نفسه وغيره

المسؤولية العامة : هي تحمل المسؤوليّة تجاه الإسلام كدين والمسلمين كأمة

وهذا الجمع نجده في خطاب الله لنبيه

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ)

فالجهاد والقتال في سبيل الله مسؤولية عامة إلا أنه يبدأ بالمسؤولية الفردية كل واحد يكلف نفسه ويعد نفسه ويهيئ نفسه للجهاد ،

والأمر في هذه الآية جمع بين المسؤوليّة العامة تجاه الإسلام والمسلمين ، في قوله **(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)** والمسؤولية الفردية في قوله (**لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ**) ثم قال الله لنبيه **(وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ)**

لندرك أن المسؤولية الفردية لا تعني الانحصار على النفس وترك الناس من حولك بل من مسؤوليتك الفردية أن تعلم الناس وتدفعهم للحق وتحرضهم على الخير

حرض المؤمنين .. على الطاعة والعبادة

حرض المؤمنين .. على الولاء الخالص لله والبراء من أعدائه

حرض المؤمنين .. على قول الحق والنهي عن المنكر
حرض المؤمنين .. على الجهاد والقتال لمواجهة البغاة والمعتدين
حرض المؤمنين .. لنصرة الحق باللسان والقلم وما آتاك الله من القدرات والإمكانات

القاعدة الثانية :

أن المسؤولية مرتبطة بالمساءلة والمحاسبة

في الدنيا والأخرة ، يقول رسول الله في حديث معاذ بن جبل (لا تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع :

عن تفاصيل الحياة العامة (عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه)

وعن الحياة الاقتصادية (وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه)

وعن المحصول العلمي (وعن علمه ماذا عمل به)

ستسأل عن كل ما علمك الله إياه هل عملت به هل علمته لغيرك هل استفاد دين الله وعباد الله من هذا العلم أم لا

ستسأل عن النعم التي لا تعد ولا تحصى وإن كانت في نظرك مستصغرة ، خرج رسول الله مع أبي بكر وعمر يبحثون عن طعام فأطعمهم جابر بن عبدالله رطبا ولبن **فقال لهم رسول الله** (هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي ستسألون عنه يوم القيامة) وتلى عليهم قول الله (**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**)

قيمة المسؤولية كانت حاضرة في حضارة المسلمين لأن الإسلام ربطها بوقفة الحساب يوم القيامة

أخرج البخاري ومسلم عن عدي بن حاتمٍ أن رسول الله قال (ما منكم من أحدٍ إلا سيُكلمُه ربّه، ليس بينه وبينه تَرجمانُ، فينظرُ أيْمنَ منه، فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظرُ أشأمَ منه، فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظرُ بين يدَيه، فلا يرى إلا النَّارَ تلقاءَ وجهه، فاتَّقوا النَّارَ، ولو بشقِّ تمرةٍ)

تخيّل نفسك في هذا الموقف والله جل جلاله هو من سيسألك ويحاسبك وأنت لوحدك بمفردك

مجرد التخيل لهذا الموقف يجعلك تعمل لنفسك وتتحمل مسؤولياتك دون أمر و متابعة و تذكير

ولذلك .. لن يفرط الناس بمسؤولياتهم في الدنيا ، ماداموا متذكرين أمرين :

وقفة الحساب (**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ**)
السؤال المفرد (**وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا**)

مواطن أداء المسؤولية :
أنت مسؤول عن كل شيء في هذه الحياة وستحاسب على تقصيرك وتجزى على انجازك لكن من باب التذكير نشير إلى بعض المواطن :

الأول .. المسؤولية عن النفس :
نفسك التي تحمل الاستعداد للفجور أكثر من التقوى وتميل للهوى قبل الهدى ، فمسؤوليتك أن تجاهدها وتزكيها وتسير بها نحو الخير والإيمان وتحميها من الانحراف والسير في طريق الشيطان
(**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**)

الثاني .. المسؤولية عن الجوارح :
لأن الله عز وجل قال (**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**)
ستسأل عن كل كلمة تنطقها لسانك (**مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**)

الثالث .. المسؤولية عن الأسرة :
أنت مسؤول عن والديك وستسأل يوم القيامة عن برك بهما ، أنت مسؤول عن زوجتك وستسأل يوم القيامة عن حسن معاشرتها ، أنت مسؤول عن أبنائك وستسأل يوم القيامة عن حسن تربيتك لأبنائك امتثالا لقول الله(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**)
ولذلك المرأة حين استشعرت مسؤليتها خاطبت زوجها عند خروجه لطلب الرزق قائلة له : (إنا نطيق الصبر على الجوع ولا نطيق حر النار فاتق الله فينا ولا تطعمنا لقمة من حرام)

والنبي امتدح الرجل الذي استشعر مسؤوليته تجاه أهله حين قال (رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ركعتين وأيقظ امرأته فإن أبت نضح في وجهها الماء)

الرابع .. المسؤولية عن المجتمع :
والمسؤولية هنا معناها أن يؤدي المسلم دوره في بناء

المجتمع الذي يعيش فيه ، وأن يحافظ على بيئته من كل ما يفسد فيها الدين أو الأمن أو الأخلاق

ورسول الله توعد بالعقاب

أبناء الحي والقرية إذا ظهر فيهم من يفسد ويمارس المعصية ولم يؤدوا دورهم في منعه وإيقافه ، فقال : (ما من قوم يعمل فيهم المعاصي وهم أعز وأكثر ممن يعمله ، ثم لم يغيروه ، إلا عمهم الله تعالى بعقاب من عنده)

الخامس .. المسؤولية عن الدين :

والمسؤولية عن الدين معناها أن يدرك كل مسلم أنه المسؤول الأول والوحيد عن دين الله وإن قصر الناس جميعا في أداء مسؤولياتهم (**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**)

فتحمل مسؤولية دينك كما تحملها رسول الله الذي دعا إلى الله في الشعب رغم الحصار وفي طريق الهجرة رغم الفرار ،

وتذكر أن يوسف عليه السلام دعا إلى الله في السجن فقال : (**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**)

السادس .. مسؤولية الحاكم :

وهي المسؤولية الأهم التي بقيامها تسعد الأمة ، **المسؤولية** التي لو استشعرها حكامنا اليوم لكنا نحتفل بالفتح والتحرير في مساجد صنعاء وساحاتها ، **لو استشعروها** لما كان المعلم والموظف من ثلاثة أشهر بدون راتب ، **لوا استشعروها** لما كان راتب الجندي في تعز خمسة وخمسين ألف وفي المخا خمسمائة وأربعين ألف ، **لو استشعروها** لطهروا البلاد من كل منكر يغضب الله ويؤخر النصر ، **مسؤولية الحاكم** لو استشعرتها السلطة التي أصدرت قرار بعدم رفع الإيجارات أو التأجير بالعملة الخارجية لما تساهلت مع من يخالف أمرها ، في ظل جنون الإيجارات واستغلال حاجات الناس لا نطالب السلطة اليوم بإصدار قرار ، نطالبها بتنفيذ قرارها احتراما لمكانتها

إخوة الإيمان : أهل العلم جمعوا مسؤوليات الحاكم تجاه رعيته بست مهام :

سياسة الدنيا بالدين وتسير الحياة وفق شرع الله ومنهاجه

إقامة العدل والبعد عن الظلم

حفظ المال العام وصرفه بالطرق المشروعة

تعين أهل القوة والأمانة في المناصب

حفظ دماء الناس بعدم قتلهم أو السكوت عن قتلهم

تسهيل سبل العيش وتحقيق مطالب الحياة

فالحاكم الذي لا يؤدي مسؤولياته :

ينبغي أن يخش على نفسه من أن يحرمها الله الجنة **كما قال رسول الله** في حديث معقل بن يسار الذي أخرجه البخاري (ما من عبد يسترعيه الله رعيه من المسلمين ، فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة)

الحاكم المؤدي لمسؤوليته هو من يتفقد أبناء أمته بكل أطيافهم سواء بنفسه أو عبر أطر حكمه

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

يقول الشهيد سيد قطب :

افتقاد سليمان للهدهد دليل على اليقظة والدقة والحزم، فهو لم يغفل عن غيبة جندي في وسط هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير ،

والملفت هنا أن نبي الله سليمان جمع بين المسؤولية بالتفقد والمحاسبة بالتوعد إلا أن يأتي بعذر يقبله

وفي المحاسبة للوظائف العامة، أخرج البخاري أن رسول الله استعمل عاملا فجاءه العامل يقول : (هذا لكم وهذا أهدي لي) فقام رسول الله بعد الصلاة و قال: «أما بعد فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول هذا من عملكم وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فنظر هل يهدى له أم لا، فوالذي نفس محمد بيده لا يغل أحدكم منها شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه)

وَروى أبو بكرة الأنصاري

أن أعْرَابي وقف عَلى أمِير الْمُؤْمِنِينَ عمر ، فَقَالَ:

يَا عمر الخير جزيت الجنة

أكس بنياتي وأمهنه

أقسم بالله لتفعلنه

فقال له عمر: وإن لم أفعل يكون مَاذَا؟،

فَقَالَ : إذا أبا حفص لأمضينه

قَالَ عمر : فإن مضيت يكون مَاذَا؟،

قَالَ :وَالله عَنْهُن لتُسألنه

يوم تكون الأعطيات منة،

والواقف الْمَسْئُول بينهنه

إمَّا إلى نَارٍ وَإمَّا جنة

فبكى عمر حتى اخضلت لحيته، وَقَالَ : لغلامه اعطه قميصي هَذَا لِذَلِك الْيَوْم .. لا لشعره

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسئُولُونَ)

ختاما :

سترتاح في الأخرة إذا نظرت للحياة الدنيا نظرة مسؤوليّة